

الافتتاحية

ليست المرة الأولى التي تطرح فيها على بساط البحث قضية علاقة العرب والمسلمين مع الغرب ومع الحضارة الغربية. لقد بدأ هذا النقاش منذ القرن التاسع عشر بعدما احتلت الجيوش الأوروبية بلداناً عربية وإسلامية، وبقيت فيها لسنوات طويلة. كما حصل مثل هذا النقاش قبل قرون عدة مع الحملات الصليبية المتتالية التي اجتاحت العالم الإسلامي «لتحرير الأراضي المقدسة». وفي كل تلك المرات لم يكن النقاش بين الطرفين؛ أي الغرب من جهة، والعالم الإسلامي من جهة مقابلة؛ بل كانت الأسئلة تطرح من داخل كل عالم بشكل منفصل عن الآخر. فالمسلمون كانوا يُفكِّرون من موقع المغلوب الذي احتلت بلاده وتفككت وخضعت للهيمنة الغربية، وكيف يتعاملون مع ذلك المُحتل؟! في حين، كان الغرب، من جهته، يفكر في كيفية إدارته البلدان والشعوب التي وقعت تحت سيطرته من موقع المُتَعَطِّش لنهب الثروات، وتوسُّع النفوذ، ودوام الاحتلال.

واجه العالم الإسلامي ما عُرف بصدمة الغرب بعد احتلال الدول الأوروبية المباشر لبلاد المسلمين في منتصف القرن التاسع عشر، بعدما نجح الغرب في تفكيك الدولة العثمانية «الرجل المريض»، وإنهاء وجودها في مطلع القرن

العشرين، وفي تقسيم الشُعب العربية إلى دول وكيانات، كان أخطرها وأقساها زرع كيان غريب في قلبها هو «إسرائيل». ولم يتوقف الأمر عند ذلك الحد؛ فسياسات التدخّل، ودعم ذلك الكيان، والترويج للثقافة الغربية، لم تتوقف منذ ذلك الوقت إلى اليوم. لا؛ بل تتباهى بعض الدول الغربية بفرض عقوبات على دول وشعوب وتنظيمات في بقاع عدّة من العالم، والتضييق عليها اقتصادياً وسياسياً لإخضاعها واستتباعها.

لقد اقتحم الغرب حياة المسلمين والعرب وهو مُتقدّم بالتقنية، ومُدجج بالسلاح، وقدّم نفسه حضارةً نموذجيةً لا يرقى الشكُّ إليها، تمتلك زمام المعرفة والثقافة والسيطرة على المستقبل. ولجأ إلى من يساعده في ديمومة مشروعه ذلك من نُخب، ومُثقفين، وباحثين في مختلف الدراسات والعلوم الإنسانية. ناقش العلماء والمفكرون بمختلف اتجاهاتهم، ورجال الحكم والدولة في بلداننا قضية ذلك الغرب. كيف نفهمه؟ كيف نتعامل معه؟ وهل هو الأنموذج الحضاريّ الذي يجب الالتحاق به وتقليده، أم هو أنموذج الهيمنة والسيطرة والنهب والاحتلال الذي يُفترض أن نواجهه ونرفض استمرار وجوده؟! وانقسم أولئك إلى أكثر من اتجاه في التعامل مع تلك التّحدّيات: الفكرية، والدينية، والسياسية التي اقتحمت حياتهم دفعةً واحدة. فمنهم من اعتقد الالتحاق بالغرب المُتفوّق وتقليده سيحقّق للشُعوب العربية والإسلامية النهضة المفقودة. ولذا، دعا أصحاب ذلك الاتجاه إلى تقليد الغرب في كلِّ منتجاته الثقافية والتعليمية والجامعية والإدارية والعسكرية... في حين، دعا الاتجاه المُتوجّس من الغرب إلى الحذر، وإلى التّمييز بين منتجات الغرب الفكرية والمادية؛ بحيث يتمّ رفض الجانب الفكريّ، وقبول الجانب الماديّ التكنولوجيّ الذي لا يثير أيّ هاجس أخلاقيّ، أو ثقافيّ بالنسبة إليهم... إلى من رأى في الغرب مشروع هيمنة وغلبة واستعلاء لا يمكن القبول به، وتجلّى ذلك الاتجاه في حركات المقاومة التي واجهت الاحتلال الغربيّ منذ القرن التاسع عشر إلى اليوم.

ما الذي تغيّر منذ أكثر من قرن إلى اليوم؟

قمنا بتقليد الغرب في مناهج التعليم في جميع المراحل الدراسية وخاصة في المرحلة الجامعية، وفعلنا الأمر نفسه في التنظيم الإداري، وفي مشاريع التنمية، وفي تدريب الجيوش، وفي المرجعيّات الدستورية والقانونية... ونقلنا إلى

طلّابنا رؤى مُفكّري الغرب وعلماهم ونظرياتهم في العلوم الإنسانيّة والاقتصاديّة والسياسيّة؛ تلك النظريّات التي سوّغت النهب، والعقوبات، والخنق الاقتصاديّ، والحروب الاستباقية... وحفظنا تلك النظريّات، ثمّ قمنا بتدريسها في جامعاتنا طوال عقود... ومع ذلك، لم تتحقّق النهضة المنشودة والمُتوقّعة من تقليد الغرب، لا؛ بل زادت التبعيّة.

بعد نحو مئة عام من استقلال الدُول العربيّة والإسلاميّة لا يزال الغرب يتعامل معنا، ومع شعوب العالم الأخرى غير العربيّة بالعقليّة نفسها: المُتحمّض في مقابل البدائيّ وغير المُتمدّن. لا؛ بل يحسب الغرب نفسه صاحب رسالة لنشر المدنيّة والحضارة، وقد قالتها فرنسا بصراحة عندما احتلّت الجزائر، أنّها تقوم بمهمّة تحضير (من حضارة) للشّعب الجزائريّ. وكذلك فعلت بريطانيا عندما احتلّت الهند. أمّا ذريعة التّمدين في القرن العشرين فهي نقل الديمقراطيّة حتّى بالاحتلال المباشر والتّدخل العسكريّ.

ما الذي تعيّر منذ أكثر من قرن إلى اليوم؟

لقد فقدَ الأنموذج الغربيّ سحره، ولم يعد الغرب يقيناً. أسهم هو نفسه في زوال ذلك اليقين على مختلف المستويات: الثقافيّة، والاقتصاديّة، والسياسيّة، والإنسانيّة.

- فعلى المستوى الاقتصاديّ، تبين أنّ الأنموذج الغربيّ العالميّ في خدمة الأثرياء أصحاب المؤسّسات والشّركات الكبرى. وها هم الفقراء قد ازدادوا فقراً والأغنياء غنى. ولم تفلح جهود الأمم المتّحدة، على مرّ العقود، والبرامج والخطط في انخفاض نسبة الفقر.
 - وتبين على المستوى السياسيّ أنّ ديمقراطيّة الغرب انتقائيّة ومخادعة، فهي إلى جانب الاستبداد إذا كان في خدمة مصالحها، وضدّ الشّعوب إذا كانت تريد الاستقلال والتحرّر من الاحتلال.
 - وعلى المستوى الإنسانيّ، كشف وباء كورونا مدى لا إنسانيّة الغرب في التّعامل بين دُوله من جهة، ومواطنيه أنفسهم من جهة أخرى.
- لقد تغيّر العالم. إنّ أفول الغرب الذي تحدّث عنه وتنبأ به بعض المفكرين الغربيين قبل عقود بات اليوم أكثر واقعيّة.
- لقد تراجع بريق «الأنموذج الغربيّ» منذ بضعة عقود، ولم يعد هذا الأنموذج

وحضارته، لا في عيون المسلمين والعرب، ولا في عيون غيرهم من شعوب العالم مرجعيةً يقينيةً. فقد تنامت الهويات الثقافية والدينيةً خلافًا لتوقعات العولمة، وشهد العالم الإسلامي صحوةً استعاد معها المسلمون ثقمتهم بالإسلام بوصفه مرجعيةً حضاريةً وثقافيةً راهنةً ومستقبليةً. كما شهد الغرب نفسه تفاقم مشكلات عميقة سياسية وأخلاقية واقتصادية لم يُقدّم إجابات شافية ومُرضية عنها، أثارت حتى لدى علماء غربيين ومفكرينهم أسئلةً عن مستقبله، ووحدته، وتصدّع أنموذجه الحضاري، خاصةً أنّ الغرب كان يعوّض عن ذلك التصدّع الحضاريّ بمزيدٍ من تقدّم آتية العسكرية، والعودة إلى الاحتلال والتدخل المباشر.

بات السؤال عن المنشأ الفكري والفلسفي لهذا الغرب بدهياً ومنطقياً بعد أن استغرق في الاستعلاء والهيمنة والحروب والإبادات. بات هذا السؤال ملحاً بعد مؤشرات أفول الغرب في مطلع القرن الحالي، إثر صعوده الكبير في القرنين الماضيين... فالولايات المتحدة باتت عاجزة عن إخفاء ما بلغته من تدهور في أنظمتها السياسية والاقتصادية، ولم يعد بمقدورها ردم الهوة التي تزداد انكشافاً بين تغول قدراتها العسكرية الصلبة، ومنجزاتها الثقافية الناعمة الفنية والسينمائية والإعلامية التي تُسوِّغ شنّ الحروب على شعوب العالم. وها هي أوروبا تخسر السباق نحو الأنموذج العالمي، بعدما فشلت في أن تبقى قُدوةً ثقافيةً وحضاريةً، وبعدها عجزت عن فكّ تبعيتها للولايات المتحدة، وحلّ مشكلاتها مع العالم الإسلامي. وها هو الرئيس الفرنسي نفسه امانويل ماكرون يقرّ في مؤتمر للسفراء، تناول السياسة الخارجية لبلاده: «نحن نعيش حقبة تمثل انتهاء الهيمنة الغربية على العالم... يجب إعادة التفكير بالنظام الدولي القائم».

كما كتب علماء ومفكرون كُثُر عن انهيار أميركا، أو إعادة إنتاج نفسها؛ لتصبح دولة داخل «السور» كما هو حال الإمبراطورية البريطانية التي تفكّكت وعادت دولةً عاديةً، شأنها شأن بقية الدول.

من أهمّ من كتب عن توقّع ذلك الانهيار الأميركي ألفين توفلر، وكذلك المؤرّخ والمفكر الأميركي بول كينيدي، في كتابه «صعود القوى العظمى وسقوطها»، الصادر في العام ١٩٨٨م، الذي رأى فيه أنّ الولايات المتحدة تتراجع على المستوى الاقتصادي، وأنّ ذلك التراجع إذا ما استمرّ سينعكس على الأبعاد

الأخرى لعناصر القوة الأميركية. وخلص إلى أن الإنفاق العسكري الكبير، فضلاً عن الالتزامات الإنفاقية الواسعة، أصبحت فوق طاقة الولايات المتحدة. وانتهى إلى التحذير من أن الاتجاه الحالي سوف يؤدي إلى أن تواجه أميركا المصير الذي واجهته قوى إمبريالية سابقة.

هناك كتابات كثيرة عن انهيار أميركي وشيك، نشرها كتّاب كبار، أمثال: المحللين الاقتصاديين هاري فيجي وجيرالد سوانسون، في كتابيهما: «سقوط أميركا قادم فمن يوقفه؟». وكذلك رونالد هويت في كتابه «صعود أميركا كقوة عظمى وهبوطها»، ومستشار الأمن القومي للرئيس كارتر، زبغنيو بريجنسكي، في كتابه «خارج نطاق السيطرة أو الانفلات»، والفيلسوف الفرنسي روجيه غارودي في كتابه «أميركا طليعة الانحطاط»، والخبير الفرنسي إيمانويل تود في كتابه «ما بعد الإمبراطورية»...

لم تعد الحضارة الغربية أنموذجاً مقنعاً لشعوب العالم. وإذا كان الغرب لا يزال مهيمناً بقوته العسكرية؛ فذلك لا يعني أن حضارته كذلك. أما تقدمه على المستويات التكنولوجية والرقمية والسيبرانية، من أجل السيطرة والتجسس والتنافس والتسويق، فذلك ليس من مؤشرات البعد الإنساني للحضارة.

لا يمكن تجاهل ما يجري في الغرب من تحولات؛ فالعالم الإسلامي مجاور لذلك الغرب، وهو الذي تأثر به وعاش تحت احتلاله سنوات طويلة. ولا يزال الغرب فاعلاً ومؤثراً في كثير مما يجري في البلدان العربية والإسلامية. لكن نظرة أولئك إلى ذلك الغرب قد تغيرت، ولم تعد نظرة دهشة وإعجاب كما كانت في القرن التاسع عشر. بات كثير من المفكرين والباحثين، ومن الحركات الإسلامية باتجاهاتهم وتجاربهم المختلفة، ومن موقع استعادة الثقة بالذات، يطرحون بثبات أكبر رؤى وبدائل نقدية حضارية وإنسانية وأخلاقية لذلك الغرب.

لم يعد من الممكن اليوم أن نتجاهل من منظور البحث العلمي كيف نشأ الغرب الذي يطلق عليه بعض المفكرين «أسطورة الغرب». وكيف أسس ذلك الغرب فكرياً وعملياً لسياسات التوسع والهيمنة؟ إلى ما يقرب به كثير من الباحثين الغربيين من مؤشرات أقوله التي باتت جلية واضحة.

في هذا النقاش التاريخي والراهن عن علاقة بلداننا العربية والإسلامية مع

الغرب، ومع المستقبل الإنسانيّ الذي نريده مع مختلف شعوب العالم، عقدت كلية الأديان والعلوم الإنسانيّة في جامعة المعارف مؤتمراً دولياً بعنوان «تحديات الحضارة الغربيّة، مقاربات عربيّة وإسلاميّة» تمّ نشر الأوراق البحثية التي قدّمت فيه في هذا العدد من المجلة .

طلال عترسي